قميص السعادة

مقالة

زكي نجيب محمود

يحكى ان رجلاً ضاق بنفسه وضاقت به نفسه ، ومل الحياة وملته الحياة ، لا يكاد يستقر في مكانه من مأواه حتى يخرج هائماً على وجهه في الطريق ، ثم لا يكاد يهيم في الطريق على وجهه حتى يقفل راجعاً الى مكانه من مأواه ، ولبث على هذا النحو حينا . فاشتد به القلق ، ولم يعد في قوس الصبر عنده منزع .

وماهو ذات يوم الا ان ضرب المنضدة أمامه بجمع يده ، وقال لنفسه في لهجة حازمة جازمة : اما موت واما حياة ـ كما يقول هاملت ـ اما موت يقضى على هذه الحياة الخيالية الخاوية الفارغة الا من التافه السفساف ، وأما حياة خصبة مليئة غزيرة بعيدة الاغوار .. فاما الموت فلست أشتهيه لنفسي ، واذا فلابد لي منذ اليوم أن أعيش وأن أعيش سعيداً .

راح يفكر كيف السبيل الى ذلك العيش السعيد المأمول ، واستهدى الناس الى هدفه المرجو سواء السبيل ، فقال له قائل : الأمر هين ميسور ابحث عن أسعد الناس عيشاً وأحفلهم بالحياة ، حتى اذا ماجئته ، البس قميصه ساعة او ساعتين تكن مثله سعيداً محتفلاً بالحياة .

وانطلق صاحبنا يبحث عنه في الحضر تارة وفي البادية طوراً ، يبحث عنه في القصور مرة ، وفي اكواخ الريف مرة ، حتى جيء به يوماً الى رجل شهد لنفسه وشهد له الناس من حوله انه سعيد هانىء ، لم يعرف قط في حياته كيف تضيق النفوس وتحرج الصدور .. فاذا هو عريان الجسد لا يملك قميصاً ! .

عاد الرجل من سفره وهو يتدبر ماوجد وما رأى .. هاهو ذا الحق قد وضح امام عينيه أبلج ناصعاً ، لم تعد السعادة في رأيه مشكلاً معضلاً ، ففيم هذا الكلام الطويل العريض الذي ماأنفك يديره الناس في أفواههم عن السعادة والحياة السعيدة ؟ ، ان اللغز لم يعد لغزاً ، أن سر السعادة قد افتضح ، سر السعادة في قلة الحاجات ، فقل

لي كم تتطلب لحياتك من حاجات . أقل لك كم انت سعيد .. هي عملية حسابية أولية بسيطة : لو بلغت حاجاتك صفراً كانت لك مائة السعادة كلها ، وتزيد حاجاتك فيهبط مقدار السعادة في نسبة عكسية دقيقة .. لم يكن ديوجنيس – اذا – هازلا حين آكتفى من دنياه ببرميل يقيم فيه . فلما جاءه الاسكندر العظيم يسأله : ماذا تريدني أصنع لك من معروف ؟ أجابه : لاأريد منك سوى أن تبعد عني الآن حتى لاتحجب ضوء الشمس ..

اذا آمنت بأن ملابس الشتاء تنفعك في الصيف كذلك ، فأنت اقرب الى الحياة السعيدة ممن لايتصور الحياة بغير ملابس للصيف وأخرى للشتاء ، واذا آمنت بأن غرفة واحدة تكفيك للنوم والأكل والجلوس والقراءة ، فأنت اقرب الى السعادة ممن لايتصور الحياة بغير عشر غرف او عشرين . واذا آمنت انك تستطيع بيديك أن تؤدي لنفسك معظم حاجاتك ، فأنت أدنى الى العيش السعيد ممن يستحيل عليه العيش بغير خدم وأتباع .. وهكذا قل في شتى جوانب الحياة وأوضاعها .

لكن ماأيسر القول وماأشق العمل . فأيسر اليسر أن تقول لنفسك : البس ملابس الشتاء في الصيف ، واسكن غرفة واحدة . واصنع هذا وذاك بيديك ، وامش الى هنا وهناك برجليك .. أيسر اليسر أن تقول لنفسك : ان كان عبء الحياة ثقيلا على كاهلك فانفضه عن نفسك بضربة واحدة وعزمة واحدة ، تزح عن كاهلك العبء الثقيل الذي يبهظه وينقضه . أما أن تنفذ هذا الذي تنصح نفسك بفعله ، فأمر دونه أقوى ماعرف البشر من مضاء الارادة وقوة التصميم . وان شئت فاقرأ للغزالي كيف كادت نفسه تتمزق ارباً من شدة ما كان يعانيه من تردد ، حين أحس الرغبة في اعتزال حياته المدنية بكل ماجاءته به من مجد وجاه ، ليلوذ بحياة بسيطة ساذجة متقشفة زاهدة .

ولا أكتم القارىء أني في موقف شبيه بهذا : أحس رغبة عارمة في الانطواء والانزواء والاختفاء وخلع الحياة المعقدة لألوذ بما هو أبسط وأخذ من ألوان الحياة ، لكن ماحيلتي ان عزت على ارادة الغزالي وأمثاله ؟ انني اتمنى الآن أن اعيش أبسط العيش وأبعده عن التركيب والتعقيد . ومع ذلك ترانى لاأصنع شيئاً في سبيل التنفيذ . فلا أزال أتأنق في ثيابي ، وأجل منها شيئاً للصيف وشيئاً للشتاء ، وهذا الثوب للنهار وذلك للمساء !!..

حيلتي ازاء ذلك كله هي حيلة العاجز ، وقد اصطنعتها ، الا وهي التنفيس عن طريق القراءة ، فأقرا لرجل عاش هذا العيش البسيط الذي أتمناه ، ووصف لنا أسلوب عيشه ، فلعلى أستمتع على صفحات كتابه بحياة أتمناها ولا أقوى على تحقيقها ، ومن يدري ؟ فقد يكون هذا هو نفس مايقصد اليه الادب كله من غايات ، فيعيش الاديب للناس ، بمعنى انه يعاني حياة معينة ليقدمها مكتوبة ، فيعيشها غيره وهو مضطجع على مخدعه مسترخى البدن مستريح البال ! .

وكان الكتاب الذي اخترته ليحقق لي ماابغيه هو كتاب « وولدن » الذي وصف فيه الكاتب الأمريكي « هنري ديفد ثورو » حياته في الغابة التي فر اليها من وجه المجتمع الممقوت البغيض ، وقد كنت اهم بقراءة هذا الكتاب منذ سنين ، وكانت تصرفني عن ذلك شواغل الحياة ، حتى سنحت هذه الفرصة البديعة لقراءته ، فهانذا فيما يشبه الحالة التي دفعت « هنري ديفد ثورو » الى هجر المجتمع فراراً من تكاليفه المرذولة وتقاليده الممقوتة ، لكنني لاأملك الشجاعة التي كانت له فحققت له مأأراد من هروب ، فلا أقل من أن أصاحبه في فراره وأنا مستلق على مخدعي ! .

ضاق « ثورو » بهذا التنافس الحاد العنيف الذي يتدافع الناس فيه بالمناكب ، سعياً وراء ادوات العيش التي الهتهم عن العيش ذاته ، وفكر وتدبر ، فلم يجد مهرباً الا الحد من حاجاته حتى لايضطر الى العمل الا بضع ساعات قليلة ، وهو في ذلك يقول : أن أوضاع الأمور يجب أن تنقلب رأساً على عقب ، فبدل أن نسعى ستة ايام وتستريح في السابع ، ينبغي ان يكون سابع ايام الاسبوع هو فترة العمل التي نكسب فيها رزق الحياة بالكدح وعرق الجبين ، أما الستة الايام الاخرى ، فكلها يكون عطلة الاسبوع ، نستمريء فيها حياة الوجدان والروح ، ونستجلى فيها روائع الطبيعة في جلالها وجمالها .

لكن المدينة ـ بالطبع ـ لم تسمح له بمثل هذا الذي تمناه ، ففر الى غابة عاش فيها مع الحيوان الذي احبه لأنه أحب الحياة في شتى صورها .. وهل تظنه قد استراح في عزلته تلك من أعباء المجتمع ؟ لا والله ، بل ذهب اليه في مكمنه. جباة الضرائب يطلبون منه ضريبة للدولة ، فأبى أن يجيبهم الى ماطلبوه ، احتجاجاً على سياسة الدولة عندئذ في ارغام العبيد الفارين على العودة الى المزارع التي كانوا يعملون فيها لسادتهم ، فقبض عليه وسيق الى السجن . وهاهنا يروى أن « أمرسن » زاره في سجنه وسأله : « ماالذي جاء بك الى هنا ياهنري ؟ » فأجابه : « العجيب هو أنهم لم يجيئوا بك أنت أيضاً الى هنا ياأمرسن »

قرأت كتاب « وولدن » وتعلمت منه درساً لن أنساه مابقيت على ظهر الارض حياً . تعلمت ذلك الدرس من سؤال القاه « ثورو » على نفسه وأجابه لنفسه :

ـ ماالذي يبرر للانسان أن يعيش حياته ؟
ـ انه لا مبرر للانسان أن يحيا لحظة واحدة أن ملك الدنيا بأمرها وفقد نفسه .

ان عناصر المقالة الادبية التي ذكرناها تتجلى هنا مثل العفوية اذ لامنهجية فيها ولا تكلف . والذاتية فهي تعكس وجهة نظر كاتبها في السعادة وخبرته الشخصية وتجاربه فيها . والاسلوب المثير والممتع القائم على الخيال والصور والعبارات الموسيقية وعناصر التشويق من بداية جاذبة وحكاية وخاتمة تعطي القاريء شعوراً بالاقتناع والرضا .